عنوان المحاضرة احد عشر:

جماليات السرد في النص الشعري القديم

عنوان المحاضرة احد عشر: جماليات السرد في النص الشعري القديم

يعد الشعر ديوان العرب، وحامل مآثرهم وأخبارهم، وفي هذا المجال وجد النقاد أن بعض القصائد الشعرية العربية ذات طابع قصصي، واحتفل الشعر بالكثير من العناصر القصصية التي دخلت في بنية القصيدة العربية القديمة، واتفق النقاد على أن العرب في الجاهلية كان لهم قصص كثيرة ومتعددة، فشغف العرب بالقصص والحكايات التي دارت حول أجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم، وتصوير مآثرهم وحروبهم .

1-إرهاصات القصة في الشعر العربي القديم :

تجدر الإشارة إلى أن القصة لها مفهوم فني لانستطيع أن نطلقه على موضوع ،إلا إذا استوفى الخطوط الأساسية فيه على الأقل، ونجد أن التصوير وإن كان يسلك مراحل من القصة ، ويقرب من نطاقها، إلا أننا نقلل من شأن القصة ونضعف مفهومها إذا أطلقنا على كل محاولة أو سميَّنا كل مرحلة من مراحلها قصة».

وهنا نتحدث عن المظاهر القصصية في الشعر العربي القديم ،وليس القصة بمفهومها الفني «ويشيع بين الباحثين أن أول من استعمل أسلوب القصة امرؤ القيس في لاميته،التي صوَّر فيها حاله مع عشيقته التي يقول من قصته معها :

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا عقرت بعيري يامرا القيس فانزل».

هنا سرد قصته مع إحدى النساء ، وقال أيضًا في قصته مع زوجته:

خليليَّ مُرَّا بي على أم جُندبٍ لنقضي لُبانات الفُؤادِ المعذَّب

فإنَّكما إن تنظراني ساعةً من الدَّهر تنفعني لدى أم جُندب

ألَمْ ترَياني كلّما جئت طارقًا وجَدْتُ بها طيبًا وإن لم تُطيّب».

سرد الشاعر قصته مع زوجته"أم جُندبٍ" في قالب شعري غزلي ،وأخذ الغزل عنده الطابع القصصي في رواية مغامراته الغرامية،وهو يُبالغ في الوصف شأن الفن الواقعي الذي ظهرت إرهاصاته في الشعر الجاهلي «وحصل الجزم بين النقاد على أن امرأ القيس ليس هو رائد القصة في الشعر العربي ولكن الصعاليك، ولو ممثلين في قيس بن منقذ هم رواد القصة بمعناها الفني، وإن ورد في شعر امرئ القيس قصة ذات بداية ونهاية ، فهو أولًا وأخيرًا لم يقصد أن يروى لك قصة وإنما هو يحكي لك شيئًا ممَّا وقع في أسلوب قصصي ، وقد تطوَّر هذا الفن في الشعر العربي حتى أصبح قصصًا مُكتملًا في العصور التي تلت عصر امرئ القيس».

وقد ظهر نمط القصة الوصفية التي تعتمد على تقديم الصورة الفنية دون كبير عناية بالتمهيد والعقدة والحل، فإذا قرأنا معًا بعضًا من شعر عنترة وجدناه غنيًّا بهذا اللون ،والعجيب أننا نجد نفس هذا القصص عند المتنبي مع الفارق الزمني الضخم،الذي يفصل بين الشاعرين».

هناك من النقاد من يرى بوجود معالم القصة في الشعر الجاهلي «ونكاد نقول إن القصيدة الجاهلية هي قصة شعرية على العموم، وربما كان لطقس ديني سابق أثر في تشكيلها وتكوينها، فلو نظرنا إلى المنهج، الذي ينظمها لوجدناه مبنيًا على أسس سردية من وقوف على الأطلال هو أشبه ببكاء قدري في حضرة الزمن وأكثر شعراء الغزل الجاهليون من الوقوف على الأطلال ووصف

ارتحال الأحبة،كما توقفوا عند وصف محاسن الجسد ولقاء الشاعر بصاحبته ، وتحدثوا أيضًا عن آرائهم في الحب، وكان بعضهم يتغزل بالفتاة العربية النسب».

ومن هنا نقول بأنه ظهرت ملامح للقص في الشعر الجاهلي خصوصًا عند الشعراء الصعاليك ، فأخذ الشعر عندهم الطابع القصصي في سرد حكاياتهم في قالب شعري متكامل، بل كانت عبارة عن مقطوعات صغيرة .

2- السرد في شعر الصعاليك :

مماهو متعارف عليه عند العرب أن الشاعر إذا تحدث عن تجربته الغرامية نظم قصصًا شعريًا ، ووجدنا هذا بوضوح عند الشعراء الصعاليك ، ونضرب مثالًا للمستوى الفني، الذي وصلت إليه القصة في شعر الصعاليك بقصة قيس بن منفذ المعروف"بابن الحدادية"مع ابنة عمه نعم بنت ذؤيب سجلها في شعره، ولكننا لكي نعلم فضله على امرئ القيس في هذا المجال، وهذا يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاهًا أصيلًا بل ومقصودًا أننا نجدهم لم يكتفوا بهذا الوصف، الذي يمكن أن يقال عنه أنه تصوير لمشهد ،يمكن أن نجده في شعر غيرهم كوصف المعارك والرحلات ومتابعة أحداثها ونحو ذلك،بل اتجهوا إلى التخيل في القصة بذكر أحداث أو قصص متخيلية كالصورة الخيالية التي توهمها تأبط شرًا في محادثته مع الغول،وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيدًا لنزعة القصص،حيث كان التصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة».

نورد مثالًا لقصيدة تأبط شرًا ،ومنها ماورد في قصيدته التي يصف فيها لقاءه للغول، التي مطلعها :

تقولُ سُليمى لجاراتها أرى ثابتًا "يفَنًا"حوقلًا

وله قصيدة أخرى مطلعها: ألا مَنْ مُبلغٌ فتيان فَهمٍ بِما لاقيْتُ عندَ رَحَى بِطانٍ ».

ولطالما تغنى الشعراء بالبطولة والشجاعة في أشعارهم ، وصوروا ذلك في قصص طريفة، وقد امتاز شعر الصعاليك بالروح القصصية ، والاتجاه إليها اتجاهًا واضحًا ومقصودًا في كثير من شعرهم ،وليس امتيازهم في حوادث فردية أو فلتات شاذة ، وغير هذا ماتنقله القصص، التي عرفت عن الجاهليين من صور ،ففيها قصص بطولة رائعة،وحكايات حب إنسانية وقصص وفاء وغدر،ونذكر من ذلك قول الشنفرة في قصيدته ».

سرد الشنفرة قصة الإغارة على قبيلة في نجد في قصيدته المعروفة ب"لامية العرب" التي مطلعها:

:أقيمُوا بنِي أُمي صُدُورَ مطيِّكم فإنّي إلى قَوْمٍ سِواكُمْ لأَمْيَل

فقد حمت الحاجاتُ واللَّيلُ مُقْمِرٌ وَشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مطَايَا وأَرْحُلُ

وفي الأرض منْأى للكريم عن الأذى وفيها لمنْ خاف القِلى مُتعزَّلُ».

تعد قصيدة الشنفرة "لامية العرب من"أشهر القصائد العربية،التي صوَّرت حياة العرب في الجاهلية، وظهر الطابع القصصي في شعر الصعاليك رغم قصر مقطوعاتهم الشعرية، ومن ذلك نجد النزوع القصصي في شعر القتال الكلابي نحو :

يابنتَ جَوْنٍ أبانَتْ بنْتُ شدَّادِ؟ نعمْ لعَمْرِي لغَوْرٍ بَعْدَ إنْجادِ

لِمطلعِ الشِّمْسِ ماهذا بِمُنْحَدَرٍ نَحْوَ الرَّبيعِ ولاهذَا بإصْعادِ

قَالتْ فوارسُ عَرَّادٍ فقُلْتُ لَهَا: وفِيْمَ أُمِّي مِنْ فُرْسانِ عَرَّادِ ».

وكان الطابع القصصي بارزًا في شعر عروة بن الورد ومن ذلك قوله:

تقول سُليمى: لو أقمتَ لسرّنا ولم تدرِ أني للمُقامِ أُطوَّف

لعل الذِي خوفتنا من أمامِنا يُصادُفه ،في أهلِه المتخلفُ

إذا قلتُ قد جاء الغنى ،حال دونه أبو صبيةٍ،يشكو المفاقِرِ أعجف».

ظهرت معالم القصة واضحة في فنون الغزل والفخر والمدح، فالشاعر العربي غالبًا مايسرد قصته الغرامية في شعره ، أو عندما يفتخر بنفسه وبطولاته ، وسلك هذا التوجه شعراء في عصور مختلفة ، وأما الفخر ففيه تعداد الصفات الكريمة للشاعر أو القبيلة ورواية قصص البطولة والفروسية وانتصارات الجيوش،ويكون المدح للخلفاء والقادة.

3-القصة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

زاد الاهتمام بالقصة في الشعر العربي القديم «وقد اقترن القص بفنون الشعر العربي القديم،إذ قلما نجد قصة خالية من الشعر ويعود ذلك إلى ماللشعر من تأثير في نفوس العرب، إضافة إلى أن الشعر سجل للأحداث التاريخية والاجتماعية».

وشاع الغزل في العصر الأموي بشكل واسع « ووجدنا شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة،وغزله واقعي يعكس نفسية المرأة وحياتها المترفة« لعل قصيدته "أمن آل نُعم" من أعظم القصائد التي ثبتت دعائم القصة في الشعر العربي والقصيدة عند عمر بن أبي ربيعة، قصة كاملة وإن شئت أن تتناول خيوطها ، وتنسج لاستطعت أن تخرج برواية ، وألفاظها سهلة ميسورة قريبة المعاني لاتكاد تحتاج إلى أي تعليق ،ومع ذلك فماذا علينا ننظر في أبياتها معًا،والقصيدة طويلة ،فقد كان القديم يعنى بالتفاصيل والوصف الدقيق ،وحين تطورت نظرية الأدب الواقعي ، وعبَّرت قصيدة "أمن آل نعم" عن قصة شعرية ، وجاء فيها قوله :

لعَمْرُكَ أنَّني من دينِ نعْم لَكالدَّاعِي إلى غيْرِ المجي

وَمَانُعْمٌ ولو عُلِّقْتَ نُعْمًا بِجَازِيهِ النَّوالِ وَلاَ مثُيبِ

ومابَجْزِى بقَرضِ الوُدِّ نُعْمُ وَلاَ تَعِدْ النَّوالَ إلى قرِيبِ

لقد عبَّر الشاعر عن حبه للمرأة "نعم" وعشقه لها،ولكنها غابت وصدت عنه ،ومهما تحمل الصعاب في هواها لم تثبه وتنله مطلوبه، وهذا بمثابة عتاب للمحبوبة ».

وهنا ظهر صدق عمر في التعبير عن مشاعره تجاه تلك المرأة التي تغزل فيها« ويعد القصص والحوار الصحيح خاصيتان بارزتان في شعر عمر بن أبي ربيعة،وخصوصًا ذلك الحوار الذي يدور في العادة على ألسنة النساء، وكل قصيدة لعمر موضوع تام في نفسه،وحسبما يرى طه حسين أنَّ العصر الأموي لم يعرف كله شاعرًا وصف المرأة جملة وتفصيلًا بمثل ماوصفها به عمر بن أبي ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص».

امتاز شعر عمر بن أبي ربيعة بالسهولة والسلاسة ،وقابليته لسرد القصص والحكايات «والناظر في شعر عمر بن أبي ربيعة يجد عنده مجموعة من القصص القصيرة الممتعة، ويرى بعض الباحثين الذين تحدثوا عن عمر بن أبي ربيعة أنه خير من استعمل القصة في شعره، وذلك في رائيته،التي تحدث فيها عن قصته مع العشيقة،وإن كان ابن أبي ربيعة أقرب إلى القصة من مشهد امرئ القيس وسواء أكانا مشهدين أم قصتين ،فإن ماينقصها من القصة أكثر من هذا ،وهو النواحي الفنية المعروفة في القصة وأما قصة قيس بن منقذ فقد راعى

فيها كل الخطوط الأساسية للقصة الفنية من نواحيها النفسية ،ومن جوانب الوصف ومن الحوار،ومن جو القصة وروحها ،وقد سجل قصته هذه في قصيدة طويلة ».

ظهرت براعة عمر بن أبي ربيعة في نسج قصص غرامية ،وسردها في شعره ،وبهذا تفوق على معاصريه من الشعراء في سرده المحكم،وخياله الواسع،وأبدع في نسج قصص غير مألوفة .

4-القصة في شعر المتنبي:

ازدهر الشعر في العصر العباسي، وفيه اكتملت معالم القصة الشعرية فيه ،وقد ظهرت معالم القصة واضحة في شعر المتنبي ، ومثال ذلك قول المتنبي في إحدى قصائده :

وقَفْتَ ومَا في المَوْتِ شكٌّ لِواقِفٍ كأنَّك في جفْنِ الرَّدَى وَهو نائِم

تمُرُّ بكَ الأبطالُ كلْمَى هَزيمَةً ووجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِ».

وهنا وصف المتنبي بطولات سيف الدولة مع جيشه ضد الروم ، وشجاعته عند مقابلة العدو، وقال المتنبي أيْضًا في الغزل :

إنَّ الَّتي سَفكَتْ دَمِي بجفُونِهَا لَمْ تَدْرِ أنَّ دمِي الَّذي تَتَقَلَّدُ

قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ اصفرَارِي مَنْ بِهِ وتنهَّدَت فأجبتها المتنهِّد

وصف الشاعر حاله مع المرأة التي عصفت به وأتت عليه بعيونها،وذكر أن دمه في عنقها، وأنها باءت بإثم قتله، ولما رأت اصفرار وجهه تساءلت عن السبب».

نلاحظ بأن غرض الغزل مناسب لقصص ، وهذا اللون قريب دائمًا إلى نفس القارئ ، وظهر عند المتنبي نمط آخر من ألوان القصص في سرد بطولاته الشخصية.

5- تطور الأسلوب القصصي في الشعر العربي القديم :

ظهرت ملامح القصة في الشعر الجاهلي،ومما لاشك فيه أن امرأ القيس لم يصل في شعره إلى هذا المستوى الفني أوإلى هذا القدر من فنية القصة الشعرية، كذلك لانعلم أن شاعرًا في الجاهلية بلغ هذا المستوى ؛لأنهم لايذكرون شاعرًا اتجه إلى أسلوب القصة في الجاهلية غير امرئ القيس،وكثيرًا مايلجأ الشاعر إلى السرد عندما يتذكر أحبته ،كما في معلقة امرئ القيس حينما يتذكر يوم دارة جلجل وغير ذلك من محطاته الغرامية،وهو في ذلك يستخدم تقنيات السرد من وصف وحوار ولغة قصصية،وهناك قصائد كثيرة تصور المغامرات العاطفية أو البطولية أو تسجل أحداثًا اجتماعية أو تاريخية بأسلوب قصصي مثل:قصائد لأمية بن أبي الصلت نظم فيها أساطير مسيحية ويهودية،ومثل قصائد للشماخ الذبياني والحطيئة والنابغة الذبياني والأعشى وسواهم ولكن القصة الشعرية كانت قصيرة لاتتعدى الأبيات أو العشرات القليلة،والواقع أن الدارس لشعر الصعاليك يرى بأنهم وصلوا إلى مستوى القصة الشعرية الكاملة بمفهومها الفني،وأن هذا النهج لو وجد من الشعراء من تابعه لكان للقصة في الشعر العربي شأن غير ماكانت عليه، وإذا كان شعر صعاليك الجاهلية قد وصل إلى هذا المستوى،الذي نراه متكاملًا بالنسبة للقصة الشعرية،فإنه قد وضع أسسًا كثيرة لما يمكن أن نسميه مبادئ قصص شعري،وقد وصل بعض هذه النزعة إلى درجة تقرب جاء من القصة بكل مقوماتها الفنية ،التي يسمح بها التعبير في الشعر».

لقد شهد أسلوب القصة تطورًا عند شعراء الغزل، فنجد معالم القص في شعر جميل(بثينة) ففيه قصص كاملة في الحبِّ تمتزج فيها

العاطفة المشبوبة بالعقل والحكمة،وهنا نشيد بتفوق عمر بن أبي ربيعة في اللون القصصي الشعري ،وكان لابن الرومي قصص في شعره،وغالبًا ماينهيها بحكمة، وتفاوت حجم القصة الشعرية، ففيها القصيرة كل القصر،ومنها القصص،التي تطول وتجمل في طولها غاية الجمال، وبلغت القصة الشعرية نضجها عند المتنبي، الذي انتهج أسلوب القص المشوق».

وصفوة القول نرى بأن السرد في الشعر هو جزء من التعبير عن النفس الإنسانية،ولطالما كان الشعر وعاء للتعبير عن خواطر الشاعر وهمومه، ولقد خلد الشعر الكثير من مواقف الحب والبطولة في قصص وحكايات، التي وردت في صياغة سردية شعرية.